

تفسير ابن كثير

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام أنه دعا قومه عاداً وكان قومه يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت من جهة بلاد اليمن وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال في سورة الأعراف { وادكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة } وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد والطول المديد والأرزاق الدارة والأموال والجනات والأنهار والآباء والزروع والثمار وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه فبعث الله هودا إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً فدعاهم إلى الله وحده وحذرهم نقمته وعدايه في مخالفته وبطشه فقال لهم كما قال نوح لقومه إلى أن قال { أتبئون بكل ريع آية تعبثون } اختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً ولهذا قال { أتبئون بكل ريع آية } أي معلماً بناء مشهوراً { تعبثون } أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا ل الاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ولهذا أنكر عليه نبيهم عليهم السلام ذلك لأنّه تضييع للزمان وإتّهام للأبدان في غير فائدة واستغلال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال { وتتخذون مصانع لعلكم تخذلون } قال مجاهد : والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد وفي رواية عنه : بروج الحمام وقال قتادة : هي مأخذ الماء .

قال قتادة : وقرأ بعض الكوفيين { وتتخذون مصانع لعلكم تخذلون } وفي القراءة المشهورة { وتتخذون مصانع لعلكم تخذلون } أي لكي تقيموا فيها أبداً وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم كما زال عنكم قبلكم وروى ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا الحكم بن موسى حدثنا الوليد حدثنا ابن عجلان حدثني عون بن عبد الله بن عتبة أن أبا الدرداء رأى ما أحدث المسلمين في الغوطة من البنيان ونصب الشجر قام في مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستحيون ألا تستحيون تجمعون ما لا تأكلون وتبئون ما لا تسكنون وتأملون ما لا تدركون إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فييوعون ويبئون فييوعون ويأملون فيييطيلون فأصبح أملهم غروراً وأصبح جمعهم بوراً وأصبحت مساكنهم قبوراً ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟ .

وقوله { وإذا بطيشم بطشتم جبارين } أي يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت { فاتقوا الله وأطاعون } أي اعبدوا ربكم وأطاعوا رسولكم ثم شرع يذكراهم نعم الله عليهم فقال { واتقوا الذي أدمكم بما تعلمون * أدمكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } أي إن كذبتم وخالقتم فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب مما نفع فيهم

